قراءة أفقية في :
"موسوعة الأدب العربي السعودي الحديث: نصوص مختارة ودراسات"

أ.د. عثمان بدري
جامعة الجزائر

1. تأطير

ترتبط ريادة التطور والتجديد والتحديث، في الأدب العربي الحديث ونقده بـ "المراكز" أو"الأقطاب" الثقافية التي تفاوتت في تصدر العالم العربي، كالقاهرة وبيروت وبغداد ودمشق، وما إليها. فكل المؤشرات تؤكد أن النخب الثقافية والأدبية والفنية لهذه المحاضن المتعابرة فيما بينها، قد تكاملت في تخليص الأدب العربي الحديث من الدوران في فلك السلطة التاريخية المنقضية للأدب العربي القديم، من جهة،وفي تطوير وتجديد وتحديث شتى أشكال القول فيه، سواء تلك التي وجدت وتدورت في التراث الأدبي العربي القديم، أم التي استقدمت واستزرعت واستنبتت من الآداب الإنسانية والعالمية القديمة أو الحديثة، من جهة ثانية[1].

ورغم ما تضطرب به ثوابت ومتغيرات الواقع السياسي، المتآكل للعالم العربي، من مكاره داخلية لا تقل خطورة عن الإكراهات الخارجية[2]، فقد استطاعت"الأوساط" و"الوسائط" النخبوية في القاهرة وبيروت وبغداد ودمشق، أن تؤهل الأدب العربي لانتزاع موقعه المتميز في مشهد الأدب الإنساني العالمي الحديث[3]، كما استطاعت أن تتكامل في الإشعاع المعرفي والأدبي، على كثير من الأقطار العربية التي لم تتح لها ظروفها الداخلية أو الخارجية القاهرة، أن تكون في ريادة مشهد التحديث الثقافي والأدبي إلا في حدود ضيقة جعلتها في حكم "الهامش" المتأثر أو "الصدى" المرتد لصوت "المركز" المكرس والمؤثر[4].

1-2: غير أن المعاينات الانتقائية التي تختزل مشروع التحديث الأدبي في فضاء مصر والشام، وما إليهما، تبدو بأمس الحاجة إلى المراجعة والتعديل، دون تراجع أو طعن في المكاسب التي حققها الأدب العربي الحديث، انطلاقا من هذا المجال الحيوي.

ففي فضاء الخليج والجزيرة العربية، لم تبق مؤشرات التطور المادي والنمو الحضاري رهينة ثقافة المجتمع الاستهلاكي الذي كرسته الثروات النفطية الهائلة، وإنما تجاوزت ذلك إلى استزراع واستنبات "أوساط" و"وسائط" ثقافية وأدبية متنوعة، استطاعت أن تتكامل في إرادة الإصرار على الخروج من مدار ثقافة "الهامش" الغفل، الطبيعي أو المصطنع، والدخول في مجال استكشاف وتأسيس ثقافة "المركز" الناشئ، الجديد، الذي بقدر ما يمتلك قابلية التأثر والإنفتاح، فإنه مؤهل لأن يكون قوة اقتراح مؤثرة في توسيع وتنويع وتهديف مجالات الرقي بالأدب العربي الحديث ونقده، سواء أكان

ذلك من خلال إعادة "تحيين" و"تبييء" الرصيد الأدبي المتراكم للأدب العربي الحديث، في فضاء الأقطاب الرائدة، أم كان من خلال التواصل المباشر مع متصدرات المشهد الأدبي والنقدي العالمي الحديث، خارج فضاء العالم العربي. وفي هذا السياق، لم تحل مظاهر وآليات تحكيم سلطة التشبع بالخطاب الثقافي النسقي الذي يحتج على تهافت الحاضر، بالتلاشي في الماضي، دون الانتصار العقلاني الرشيد إلى إرادة الانتظام في سلطة "المكون" الثقافي والإبداعي والحضاري، الذي يبقى هو الرهان الأجدى لإعادة البناء المادي والمعنوي، الذاتي والموضوعي، للإنسان، وسيلة متوخاة، وغاية مستشرفة من أي مشروع إنمائي أو تنموي مستدام[5] ذلك أن "بناء البشر وليس الحجر، هو المؤشر الحقيقي لتقدم المجتمعات في العصر الحالي. فلم يعد تحضر أي مجتمع يقاس بما يملكه من ثروات طبيعية، حتى لو كانت جبالا من ذهب، ولكن المقياس الحقيقي لتحضر المجتمعات الآن، هو كم الموارد البشرية ونوعيتها، التي تقود حركة الحياة في تلك المجتمعات، حيث إن رأس المال البشري يعتبر الدعامة الحقيقية لريادة التحضر والتقدم"[6].

3-1: ولأسباب كثيرة ومركبة، فقد أدركت ذلك واستدركته دول عربية كثيرة، من بينها دول مجلس التعاون الخليجي، التي راهنت –منفردة أو مجتمعة– على ربط البناء الثقافي والمعرفي والحضاري للإنسان بالأداء المؤسساتي للتربية والتعليم عموما، وبأداء ومردود "الأوساط" و"الوسائط" النخبوية النوعية المتركزة –غالبا– في مؤسسات التعليم العالي، التي تتصدرها جامعات عديدة، من بينها جامعة الملك سعود، التي تبدو أكثر استقطابا للكفاءات والخبرات والمواهب، العلمية أو الإبداعية، وأكثر إقناعا بتخطيط

وإنتاج المشاريع العلمية والمعرفية المتخصصة، ذات المواصفات العالمية المتواترة. وقد تجلى ذلك في عشرات الإنجازات العلمية، الموسوعية، التي استوقفتنا منها –بحكم التخصص والاهتمام المباشر– عدة مجلدات فاخرة، طباعة وإخراجا، بعنوان موسوعي مباشر وقار هو : "موسوعة الأدب العربي السعودي الحديث، نصوص مختارة ودراسات"، وبمتغيرات جزئية متفرعة تخص المجال الأدبي، كالشعر في المجلد الثاني، والقصة القصيرة في المجلد الرابع، والرواية في المجلد الخامس. وقد رجحنا أولوية التعريف بقراءتنا لهذه المجلدات لعلاقتها المباشرة بالمشهد الأدبي العربي السعودي الحديث، في أشكاله الإبداعية المتصدرة. وقبل معاينة هذه المجلدات تجدر الإشارة إلى جملة من المعطيات الهامة نجملها فيما يأتي :

1–1 : من المعطيات الدالة على جدية أهمية هذا المشروع أو ما هو في حكمه، أن المملكة العربية السعودية، في أحد أعلى مستوياتها، هي التي تبنت معنويا وتكفلت ماليا بإنجاز هذه الموسوعة، كما تنص على ذلك هذه الفقرة : " أنجزت هذه الموسوعة بدعم وتمويل صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبد العزيز آل سعود".

1-3-2 : تكاملت في إنجاز المشروع "ثلة" متجانسة من النخبة الجامعية السعودية، المتصدرة في مجال الدراسات الأدبية والنقدية، على مستوى المملكة العربية السعودية، وعلى مستوى العالم العربي، كما تشير إلى ذلك لائحة اللجنة العلمية للموسوعة، المتكونة من: "الرئيس: منصور بن ابراهيم الحازمي، والأعضاء: عبد الرحمن بن الطيب – عبد الرحيم بن مطلق

الأحمدي – عبد الله بن حامد المعيقل – عزت عبد المجيد خطاب – مرزوق بن صنيتان بن تنباك – معجب بن سعيد الزهراني".

1-3-3: تتضح آلية الأداء المؤسساتي هنا في كون كل مجلدات الموسوعة منتظمة في جملة من العتبات المتماثلة التي تفسر التصور المنهجي النسقي المتماسك الذي يقوم على رصد وتصنيف حلقات التطور التاريخي المتسلسلة للأشكال والأجيال الأدبية السعودية الحديثة: شعرا وقصة قصيرة ورواية، وتتمثل هذه العتبات في: "البدايات – التأسيس – التجديد – التحديث".

1-3-4: من قراءة المقدمات التي وصفت المادة الأدبية المتاحة عن الشعر والقصة القصيرة والرواية، في هذه المجلدات، ومن معاينة رصد وتصنيف النصوص الإبداعية في الشعر والقصة القصيرة والرواية، يبدو أن الفريق العلمي المشرف، يدعونا –من وراء حجاب– إلى أنه من الإنصاف أن نعيد النظر في رصد وتصنيف وتوصيف وتفسير مشهد الأدب العربي الحديث، بعيدا عن سطوة سلطان المراكز التاريخية المتصدرة، ودون تضخم شعور ما عداها بالغبن أو التهميش.

2. "موسوعة الأدب العربي السعودي الحديث"، المجلد الثاني: الشعر، إعداد: الدكتور عبد الله المعيقل.

2-1: **وصف من الخارج:** من المعاينة العينية للمجلد الثاني الخاص بالشعر، تأكد أن المعايير الكمية النسقية القارة هي التي تنتظم المجلدات الثلاثة من هذا الإنجاز الموسوعي، ابتداء بنسقية الواجهة الخارجية: "موسوعة الأدب العربي السعودي الحديث، نصوص مختارة ودراسات"

وببيانات الطبع والنشر، حيث تتماثل كليا المجلدات الثلاثة في: "الطبعة الأولى 1422 هـ–2001 م، دار المفردات للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية"، ومرورا بالهيكلة العامة للمقدمات في المجلدات الثلاثة، ولم يحل تفاوت الاحتفاء الكمي والنوعي بالشعر والقصة القصيرة والرواية، دون تماثل عتبات ومحطات المسار التاريخي (الكرونولوجي) لهذه المجلدات، وإلى ذلك نلاحظ أن المجلدات الثلاثة أنجزت بمعيار كمي يكاد يكون واحدا.

ومن الواضح أن هذه الإنجازات الموسوعية ذات الأرومة الواحدة أو الجذر الواحد (الأدب العربي السعودي الحديث) تقتضي هذه الآلية النسقية المنضبطة، مع فارق تقسيم العمل.

2-2: وفي ضوء ذلك فإن الحجم الكمي للمجلد الثاني الخاص بالشعر، يتكون من خمسمائة وإثنين وأربعين 542 ص موزعة كالآتي:

من ص 1 إلى ص 12: الواجهة الخارجية ومتعلقاتها التقنية والمحتويات.

من ص 13 إلى ص 88: مقدمة.

من ص 89 إلى ص 127: البدايات.

من ص 129 إلى ص 204: التأسيس.

من ص 205 إلى ص 321: التجديد.

من ص 323 إلى ص 542: التحديث.

وبعملية حسابية بسيطة نجد أن مجمل المادة الشعرية المرصودة للشعر العربي السعودي الحديث منذ 1902 إلى 1999، قد استغرقت أربعمائة وخمسين ص ما يجعلنا نتساءل: هل يكفي ذلك لرصد وتصنيف المشهد الشعري السعودي الحديث الذي يكاد يشغل مدة قرن من الزمن؟ لكن

يبدو أن الإصرار على وحدة معايير إنجاز هذا العمل الموسوعي وانخراطه في آليات ثقافة "المختارات" و"الشواهد" الدالة[7]، بالإضافة إلى الكفاءة البارعة للأستاذ، الدكتور عبد المعيقل في النمذجة والتنميط وفي معايير الوصل والفصل، يبدو أن كل ذلك قد يخفف من حدة هذا التساؤل أو يعلقه، على الأقل، مادام هذا المصنف قد حقق الأهم.

2-3: توصيف من الداخل

2-3-1: أول ما يستوقفنا على هذا المستوى هو الدراسة الأدبية القيمة للدكتور عبد الله المعيقل، التي استطاعت أن توائم بين التصور المنهجي النسقي للموسوعة ككل، وبين متغيرات المكون الشعري العربي السعودي الحديث. فانطلاقا من واقعية ووجاهة الإدراك الأدبي والنقدي الذي مؤداه أن الأدب –والشعر في سياقنا هذا– هو نتاج "وقع" ثوابت ومتغيرات البيئة أو البيئات التي يرتبط بها استطاعت الدراسة أن تقنع المتخصص وأن تشبع فضول المهتم برصد مساقط الضوء في الخلفية التاريخية والسياسية والثقافية والاجتماعية ذات العلاقة المرئية أو المتوارية بالحياة الأدبية عموما، والشعرية منها، خصوصا.

2-3-2: على أن الأهم، في هذه الدراسة وفي نظيرتيها بالمجلدين الخاصين بالسردية السعودية الحديثة، هو انتظامها في هيكلة نسقية جعلتها تقنع بتأطير الهدف الأساس المستشرف، متمثلا في رصد وتصنيف ونمذجة متغيرات المشهد الشعري السعودي الحديث، تبعا لمسطرة التطور التاريخي التي احتكمت إليها كل مصنفات الموسوعة، وبرعت هذه الدراسة في الالتزام المنهجي بها،

بحيث لا يفاجأ القارئ، لاحقا بوجود غموض أو التباس حول العتبات الأبرز الناظمة، مثل "البدايات – التأسيس– التجديد– التحديث".

2-3-3: بصرف النظر عن التفاصيل العينية غير المرئية التي ارتبط بها فعليا مجرى الواقع الشعري السعودي الحديث[9]، فقد استطاعت هذه الدراسة أن تملأ أو تسد الفراغات أو الثغرات الزمنية المعدومة في مسار الحركة الشعرية السعودية الحديثة، التي تبدو للرائي عن بعد، ومن خلال هذه الدراسة، مدركة، إدراكا زمنيا (كرونولوجيا)، متواصل الحلقات، وإن تباينت مفاصله ومنعطفاته، من مرحلة إلى أخرى، ومن جيل شعري إلى آخر، ومن نموذج شعري إلى آخر داخل التجربة الواحدة. وهذه –في الواقع– خاصية استشرافية لا تتاح إلا لقلة من الدارسين والباحثين المتمرسين، الذين يحسنون المواءمة بين ملكة التجريد ومهارات التجريب.

2-3-4: وفي ضوء هذه الدراسة الإطارية النسقية المفتوحة على المدرك الزمني، جاء رصد وتصنيف و"تجييل"، عينات المادة الشعرية السعودية الحديثة، مؤطرا، تأطيرا تاريخيا يبدو أنه أدخل في "تاريخ الوعي الأدبي" حينا وفيما يعرف في المناهج الاجتماعية والتاريخية بـ "تحقيب الأدب"، حينا آخر، منه في النقد الأدبي بمفهومه الوظيفي المتخصص رأسيا. وقد تجلت هذه الآلية الزمنية في العتبات النسقية الأساس التي تنتظم رصد وتصنيف المؤتلف أو المختلف، في المشهد الشعري السعودي الحديث، كما يتبين في:

- البدايات: 1319 هـ– 1342 هـ (1902 م– 1923 م).
- التأسيس: 1343 هـ– 1373 هـ (1924 م– 1953 م).
- التجديد: 1374 هـ– 1390 هـ (1954 م– 1970 م).
- التحديث: 1391 هـ– 1419 هـ (1971 م– 1999 م).

فحسب هذا "التعتيب" وحسب أنماط العينات الشعرية التي تحيل عليها كل مرحلة، يبدو المشهد الشعري السعودي الحديث، مشهدا انتقاليا ممتدا، امتدادا خطيا بلا انقطاع، منذ 1902، أي في بداية القرن العشرين إلى 1999، أي في نهايته.

فهل يستشف من ذلك أن المدى الزمني للشعر السعودي الحديث، قاب قوسين أو أدنى من المدى الزمني الفعلي للشعر العربي الحديث في البيئات الرائدة له؟

3. السردية العربية السعودية الحديثة بين الائتلاف والاختلاف

3-1: قد لا نستغرب ولا نفاجأ عندما نفترض أن عمر الشعر العربي السعودي الحديث –حسب استكشاف المجلد الثاني له– مواكب، جزئيا على الأقل، للوتيرة الزمنية التي ارتبطت بالشعر العربي الحديث، في البيئات العربية الأخرى، التي تبدو أكثر استقطابا وصقلا له وأكثر تعميما لتأثيره، في ما عداها، وذلك لأن قابليات الملكة الإبداعية في فضاء الحجاز والجزيرة العربية، للتعاطي مع الشعر "وما إليه"، أعم وأوكد وأهم، بدليل ما أثر عن حسان بن ثابت حين أنشد:

تغن بالشعر إما كنت قائله إن الغناء لهذا الشعر مضمار.

أو عن أبي فراس الحمداني، حين عمم قائلا:

الشعر ديوان العرب أبدا وعنوان الأدب.

ولكن هذا الملمح الافتراضي، المتصدر، لا يلبث أن يعدل ويحجم وينسب، بعد أن بدأت "الأوساط" و"الوسائط" الأدبية السعودية المستنيرة تنفتح

على أشكال القول الأدبية الحديثة، التي تصدرها الاحتفاء "بالقصة المقالية" ذات المنزع التربوي والاجتماعي الإصلاحي، في بداية الأمر، لتتطور بعد ذلك، تطورا كميا ونوعيا في شكلين سرديين متعابرين، هما: "القصة القصيرة" و"الرواية".

3-2: ومن الواضح أن هذا ما عمق الوعي به، المجلد الرابع، بعنوان "موسوعة الأدب العربي السعودي الحديث، نصوص مختارة ودراسات"، من إعداد: د. معجب بن سعيد الزهراني، والمجلد الخامس، بعنوان: "موسوعة الأدب العربي السعودي الحديث، نصوص مختارة ودراسات"، من إعداد: د. منصور بن إبراهيم الحازمي. وللاختلاف النوعي للسردية السعودية الحديثة، كما هي مؤطرة في هذين المجلدين، نفضل اختزال وصفهما وتوصيفهما كالآتي:

3- 2-1: المجلد الرابع: القصة القصيرة

لنسجل –بداية– أن المواصفات الموسوعية أو "الموسوعاتية" الناظمة لكل مجلدات الموسوعة، هي أبرز ما يستوقف القارئ في هذا المجلد. ولكن كفاءة التمثل والاستكشاف والتوصيف والتصنيف، للأستاذ، الباحث د. معجب الزهراني، قد طوعت من رتابة أو انغلاق المعايير الموسوعاتية المخططة سلفا حين جعلتها وسيلة تأطير منهجية استشرافية مرنة تتيح للراصد، المزيد من فرص وآليات الإلمام بـ "المكون السردي" السعودي الحديث، في مجال إبداعي، ابتداعي، عنيد وشائك، بقدر ما هو بسيط وشيق وهادف، وهو مجال "القصة القصيرة"، منذ العقد الأول من القرن العشرين، وتحديدا سنة 1902، إلى رأس العقد الأخير منه، وتحديدا

سنة 1999[10]، وإذا كانت بعض الأعمال السردية القصيرة أو "السرد/مقالية" في المرحلة المعنية بـ: "البدايات والتأسيس"، قد لا تستجيب للمفهوم الاختزالي المعقد، تحت مسمى "القصة القصيرة"[11]، وإن كانت ذات علاقة جوارية ما به، كما اختزلت الإشارة إلى ذلك فطنة أ. د. معجب الزهراني، فإنه لمن الإنصاف أن نشيد وننوه بهذه الدراسة العلمية، القيمة التي أطرت مظاهر وآليات التجديد والتحديث في القصة القصيرة السعودية، فبحكم تخصص الباحث أ، د. معجب الزهراني في "السرديات" من موقع "الأدب المقارن" وبحكم ملكة الوعي المعرفية المتسائلة، التي عهدناها فيه، استطاعت هذه القراءة –كما دعاها هو نفسه– أن تتفرد –وإن لم تنفرد– بإقناع المتخصص عن قرب أو القارئ المهتم، عن بعد، بتأسيس وتعميق الوعي بمدار مركزي "للقول على القول"، وهو مدار تتخلله إضاءات "تنظيرية" مفتوحة، دون أن تنغلق على فرضيات "نظرية" مغلقة. وبعيدا عن الاستطراد في التفاصيل الجزئية المهمة في هذه الدراسة فإن مدار القول المركزي فيها يتمثل في:

1. مهارة استكشاف ووصف وتوصيف المؤتلف والمختلف في مسار التطور الزمني (الخطي) للقصة القصيرة، كما مثلتها عينات الأجيال المذكورة والنصوص المختارة.

2. استكشاف ووصف وتوصيف موقع القصة القصيرة في المشهد الثقافي والاجتماعي (النخبوي) المتحول للمجتمع السعودي الحديث.

3. استكشاف ووصف وتوصيف مدى الائتلاف والتنوع والاختلاف المطرد للقصة القصيرة السعودية، في المشهد المترامي لنوعها واتجاهاتها وتجاربها، في الأدب العربي الحديث، خصوصا في مرحلتي التجديد والتحديث.

3-2-2: وانطلاقا من براعة استقدام "المقدمة" لملامح وقسمات الأجيال المبدعة والنصوص الإبداعية، المتناسلة، تناسلا زمنيا، تأتي "الأنطولوجيا" النصية المختارة، موزعة في المجلد، توزيعا تاريخيا ومنطقيا وفنيا متماسكا، تتغاير فيه رؤى الأجيال وآليات وخصوصيات ممارسة التجربة الإبداعية النصية للقصة القصيرة، تبعا لتغير وتغاير حساسيات "الوقع" الجمالي والفكري والاجتماعي والإنساني الذي ارتبط بهذه المرحلة أو تلك. ويبدو ذلك بدقة في حساب الزمن الكرونولوجي الخارجي الممتد من 1902 إلى 1999 وفي حساب الزمن المتغير، المتغاير، خارجيا وداخليا، تبعا للعتبات التأسيسية، الموسوعاتية العامة التي مفصلت هيكلة الموسوعة برمتها.

ومع بعض التعديلات الجزئية للعتبات الزمنية الخطية[12]، فإن النظام الذي تأسس عليه هذا المجلد، هو نفسه بالمجلدين، الثاني والخامس، إذ نجد هنا:

–البدايات والتأسيس: 1319 هـ–1373 هـ (1902 م–1953 م).

– مرحلة التجديد : 1374 هـ–1390 هـ (1954 م–1970 م).

– مرحلة التحديث : 1391 هـ–1419 هـ (1971 م–1999 م).

وبإجراء عمليات حسابية بسيطة نجد أن الزمن الكرونولوجي الذي يمثل إحدى وخمسين سنة 51 في مرحلة البدايات والتأسيس، لم ينتج إلا سبعة عشر 17 نموذجا سرديا، بعضها ينتمي إلى القصة القصيرة بالقوة وليس بالفعل، في حين أن الزمن الكرونولوجي المرتبط بمرحلة التجديد يقدر بأربع وعشرين 24 سنة، أعطت ثلاثة وعشرين 23 نموذجا، جلها –إن لم تكن كلها– منتظمة في المفهوم التقليدي للقصة القصيرة، كما عرفت لدى بعض رموزها المتصدرين في الأدب الغربي أو الأدب العربي الحديث[13].

وبصرف النظر عن المعايير المتعابرة، المتراجحة بين مرحلة التجديد ومرحلة التحديث، فإن عتبة"التحديث"هي التي تستوقفنا أكثر من غيرها، فالزمن الكرونولوجي الذي استغرقته لا يتجاوز ثمانية وعشرين 28 سنة، ومع ذلك أعطى ثلاثة وخمسين نموذجا سرديا، يخترق الكثير منها المعايير التقليدية المتعارف عليها في فن "القصة القصيرة"، سواء أكان ذلك على مستوى المبدعين أنفسهم، حيث تأخذ المبدعات حيزا لافتا للإهتمام، أم كان على مستوى الرؤى والآليات السردية التقنية المتنوعة.

2–2–3 ويتعزز ما سبقت الإشارة إليه إذا استعرضنا توزيع الحجم الكمي على العتبات النسقية المخططة في المجلد وفي الموسوعة كلها، فأكبر حجم كمي لهذه " الموسوعة / الثلاثية"، هو ما نجده بهذا المجلد الذي يشغل ستمائة وإثنين وثلاثين 632 ص، قياسا إلى المجلد الثاني 542 ص، والمجلد الخامس عن الرواية 602 ص، وقد توزع الحجم الكمي لهذا الإنجاز كالآتي:

- الواجهة الخارجية وما إليها، من ص 1 إلى 9 = 9 ص.
- المقدمة أو "مقدمة"، من ص 11 إلى ص 85 = 75 ص.
- البدايات والتأسيس، من ص 88 إلى ص 176 = 89 ص.
- التجديد، من ص 177 إلى ص 399 = 223 ص.
- التحديث، من ص 341 إلى ص 662 = 322 ص.

وقس على ذلك أيضا وتيرة التزايد والتنوع الكمي للمبدعين والمبدعات، حسب كل عتبة زمنية، حيث نجد في البدايات والتأسيس سبعة عشر كاتبا على امتداد نصف قرن تقريبا، ولا توجد من بينهم كاتبة واحدة، وأظن أن أ، د. معجب الزهراني قد أدرك اضطراب وترهل محتويات هذه العتبة، فلم ينعتها

بالمرحلة. وفي مرحلة التجديد نجد 23 كاتبا من بينهم كاتبة واحدة، هي نجاة خياط، أما المرحلة الأخصب كميا ونوعيا، فهي مرحلة التحديث التي أنتجت ثلاثة وخمسين كاتبا، من بينهم سبعة عشر كاتبة يمثلن ظاهرة لافتة في مسار القصة القصيرة والرواية بالخليج والجزيرة العربية خصوصا، وفي ما آل إليه مشهد الأدب العربي الحديث كله، أثناء مفترق القرنين : الماضي والحالي، عموما[14].

والخلاصة المفتوحة لكل ما تقدم، تتمثل في :

1- تراجع المقولة المتوارثة التي مؤداها أن الشعر هو ديوان العرب، في السياق العام، وأن الذائقة الأدبية المتصدرة في فضاء الخليج والجزيرة العربية هي "الذائقة الشعرية"، المنغلقة على ما تناهى إليها من التراث الشعري العربي القديم، في السياق الخاص والأخص.

2- برهنت النماذج التي رصدها وصنفها هذا المجلد على أنه من الإنصاف والموضوعية أن يراجع ويعدل استكشاف ووصف وتوصيف ما استقر وتكرس وتواتر باسم "الأدب العربي الحديث"، الذي ارتبط بنوع من احتكار مجالات الريادة له.

3- تؤكد كل المؤشرات المتاحة في المجلد، أن المنظور النسقي المسوق عن المجتمع السعودي، بوصفه مجتمعا تاريخيا يستهلك الثروة النفطية ويتداول خطاب إرجاء أو تثبيت أو تعويق لحركة الزمن باتجاه الأمام، ليس صحيحا، في المطلق والمتعين، إذ ليس من التحديث في شيء أن نتشبه بالآخر، لنتلاشى فيه، وإنما التحديث البناء هو أن نتواصل مع

ثقافة العصر ومقترحاته المتصدرة من موقع الآخر، على النحو الذي يحفظ كياننا ويعزز خصوصيات كينونتنا الحضارية المتميزة في هذا العالم.

4- ربما من بين مظاهر القيمة المضافة للأدب العربي الحديث ونقده، في فضاء الخليج والجزيرة العربية، أنه غير مهيكل آليا في أحزاب أو برامج أيديولوجية سافرة مع أوضد السلطة، وإن توزعته وانتظمته اهتمامات وتوجهات ومطامح أيديولوجية من نوع آخر.

4. المجلد الخامس: الرواية، إعداد: د.منصور بن إبراهيم الحازمي.

4-1: تكامل المجلدان السابقان في العبور بالمعايير الموسوعاتية الكلية المخططة إلى استكشاف المؤتلف والمختلف، في المعايير الأدبية التي تقترحها مجمل النصوص المرصودة، كنماذج وعينات دالة على حيوية مشهد الأدب العربي السعودي الحديث. وفيما يبدو، فإن ذلك يعود إلى وجود قابليات احتضان المجتمع الثقافي والأدبي السعودي لأشكال أدبية بعينها كالمقالة والشعر والقصة القصيرة، مقابل عزوفه أو ضآلة قابلية احتضانه للشكل الروائي والمسرحي، وما إليهما كالسينما ودور التمثيل المسرحي، الخ... وقد أدرك ذلك –في مقام الرواية– أ. د، منصور الحازمي، رئيس اللجنة العلمية للموسوعة، وأحد أبرز الكفاءات الأدبية والنقدية السعودية، في الأدب العربي السعودي الحديث ونقده، حين أقر في مفتتح "مقدمة" هذا المجلد بضآلة المردود الكمي أو النوعي للرواية في فضاء الأدب العربي السعودي الحديث، خصوصا في مرحلة البدايات والتأسيس، إذ يقول: ".. ولكن فن

الرواية يختلف عنها جميعها في انكماشه ومحدوديته وقلة نصوصه المتميزة مقارنة بالشعر والمقال والقصة القصيرة[15]".

4-2: ومن هذا المنطلق تبدو مرحلة البدايات والتأسيسن الممتدة من 1902 إلى 1953، كما هو مدون في هذا المجلد، فقيرة كميا ومضطربة فنيا ومتأخرة زمنيا عن مواكبة ما يناظرها من إنتاج روائي في العالم العربي، فمن الناحية الكمية لم تنتج هذه المرحلة إلا ست محاولات روائية هي: "التوأمان "، التي طبعت في دمشق سنة 1339 هـ-1930 م، من تأليف عبد القدوس الأنصاري، ورواية: "الإنتقام الطبعي"، لمحمد نور عبد الله الجوهري سنة 1354 هـ-1935 م و"غادة أم القرى"، للكاتب الجزائري الشهيد، أحمد رضا حوحو، سنة 1947 م و"فكرة" لأحمد السباعي سنة 1938 م، و"البعث" لمحمد علي مغربي سنة 1948، ومن الناحية الفنية، نجد أن كل هذه الروايات تتجانس في الافتقار إلى البناء الفني، العضوي المتماسك، ما جعلها أقرب إلى الخطاب التربوي والاجتماعي الإصلاحي كما يؤكد ذلك أ. د، منصور الحازمي نفسه، فيقول: "هكذا نرى، إذن، أن هذه الروايات التي ظهرت في مرحلة التأسيس إنما تمثل الطابع التعليمي الإصلاحي لتلك الفترة، كما تمثل طموحات وتطلعات روادنا الأوائل لمستقبل أفضل. ولكل رواية –كما هو واضح- مشكلة تريد معالجتها، أو قضية تريد الدفاع عنها[16]". وحتى إذا تسامحنا وسلمنا بريادتها في إطار الرواية التعليمية الإصلاحية فإننا نجدها متأخرة كثيرا عن أشباهها أو نظائرها التي عرفت طريقها إلى الطبع والنشر أواخر القرن التاسع وبداية القرن العشرين. ومع ذلك فإن لهذه الروايات أهمية تاريخية واجتماعية وثقافية وحضارية في فضاء

قارئ لم تتأصل لديه بعد ملكة الائتلاف والاختلاف في الرؤية إلى الواقع الحيوي، الحي الذي تضطرب به وتيرة الحياة الإجتماعية والثقافية والحضارية والسياسية للمجتمع السعودي في تلك المرحلة.

4-3: ومن الواضح أن هذا ما حاولت أن تتفاوت في إدراكه واستدراكه الأعمال الروائية السعودية اللاحقة التي بلغ عدد العينات الممثلة لها إثنين وثلاثين 32 رواية، يفترض معد المجلد، أ، د. منصور الحازمي، أنها غطت المسار الزمني المفترض في الموسوعة، الذي يمتد من 1954 إلى سنة 2001. ورغم تفاوت هذه الأعمال الروائية التي رصدها المجلد، باسم مرحلة "التجديد[17] "حينا، و" التحديث[18]، حينا آخر، فإنها قد تكاملت في تحقيق جملة من مؤشرات القيمة التاريخية والفنية والاجتماعية والحضارية المضافة إلى مشهد الأدب العربي السعودي الحديث، من أبرزها:

4-3-1: بدأت جل الأعمال الروائية التي أنجزت خلال هاتين المرحلتين، وبالأخص أثناء مرحلة التحديث، تتخلص من عباءة السردية النمطية الفجة الصادرة عن وعي إصلاحي أو تعليمي، ينظر إلى العالم وفق صيغة: "ما أريكم إلا ما أرى"، كما ساد ذلك في أعمال مرحلة البدايات والتأسيس.

4-3-2: استلزم ذلك بالضرورة، التخفف من مظاهر وآليات السرد القصصي المترهل الذي عوم حيوية العناصر الروائية الأساس، كالشخصيات والمكان والزمن، بنفس القدر الذي علب فيه الواقع الاجتماعي والإنساني، الفعلي أو المفترض.

4-3-3: رغم امتداد "المنظور الرومانسي"، حينا والتصورات المثالية حينا آخر، للواقع، في أجزاء غير قليلة من أعمال هاتين المرحلتين، فقد

تكامل جلها في استكشاف وبناء التناقضات المرئية أو المتوارية للواقع الاجتماعي والثقافي والاقتصادي والحضاري الذي تضطرب به وتيرة حياة المجتمع السعودي الحديث، خصوصا فيما يتعلق بمكانة وموقع المرأة في المجتمع، وبأوضاع وحالات ومسلكيات التعارض في الرؤى للحياة بين الأجيال التقليدية والأجيال الجديدة التي لا تريد أن تكون على هامش العصر.

4-3-4: من بين المكاسب الجديدة للرواية السعودية في هاتين المرحلتين، اتساع وتنوع وعلو أصوات روائية نسائية عديدة، كهند صالح باغفار في روايتها "البراءة المفقودة" وسميرة بنت الجزيرة العربية في روايتها "ذكريات دامعة"، وليلى الجهني في روايتها "الفردوس اليباب" التي يذكرنا عنوانها بعملين عالميين، أحدهما قديم نسبيا، وهو ملحمة "الفردوس المفقود" (لملتون)، والثاني حديث نسبيا، وهو القصيدة المشهورة للشاعر، والناقد الأمريكي (ت. س. إليوت)، بعنوان: "الأرض اليباب"، وهدى الرشيد في روايتها "عبث"، وأمل شطا، في روايتها "غدا لن أنسى "، الخ..

5- إلا أن هذه الاستخلاصات التقويمية، لم تحل دون وجود ثغرات، إن لم نقل اهتزازات كشفت عنها معاينة وتيرة المسار الزمني المرصود للمراحل الثلاث، متمثلة فيما يلي:

–البدايات والتأسيس: 1319 هـ–1373 هـ (1902م–1953 م)، أي مدة 51 سنة.

–التجديد: 1374 هـ–1390 هـ (1954 م–1970 م) أي مدة 16 سنة.

-التحديث: 1391 هـ-1421 هـ (1971 م-2001 م)، أي مدة 30 سنة.

إن هذا التصور (الكرونولوجي)، المتواصل، مؤسس على منطق افتراضي لا تؤيده-إلا جزئيا- المعطيات التاريخية المرتبطة بنشر الأعمال الروائية المرصودة في المراحل الثلاث، ويظهر ذلك جليا، فيما يأتي:

5 -1: البدايات والتأسيس

-أحمد رضا حوحو: "غادة أم القرى، تونس، 1947.

-أحمد السباعي: "فكرة "، القاهرة 1948.

-عبد القدوس الأنصاري: "التوأمان" ط1، سنة 1930.

-محمد علي مغربي: "البعث "، 1948.

-محمد علي توفيق: "الزوجة والصديق" (د. ت).

-محمد نور عبد الله الجوهري: "الانتقام الطبعي"، ط1، جدة 1935 م، فإذا علقنا أمر رواية "الزوجة والصديق" لعدم وجود ما يشير إلى تاريخ نشرها، أصلا، فإن بيانات طبع ونشر الأعمال الأخرى لا تتساوق -إلا جزئيا- مع مسطرة المسار الزمني الافتراضي المقترح، من 1902إلى 1953. وحتى إذا ترخصنا في الأمر واعتمدنا 1930 منطلقا و1950 مصبا، فأين ذهبت العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين؟

5-2: التجديد:

- إبراهيم الناصر: "ثقب في رداء الليل "، حوالي 1961.
- حامد دمنهوري: "ثمن التضحية" ط1، القاهرة 1959.
- حمزة بوقري: "سقيفة الصفا "، الرياض 1983؟

- سميرة بنت الجزيرة: "ذكريات دامعة "، بيروت 1975.
- سيف الدين عاشور: "لا تقل وداعا "، جدة 1980؟
- طاهر عوض سلام: "فلتشرق من جديد"، النادي الأدبي بأبها، ط1 سنة 1982.
- عبد السلام هاشم حافظ: "سمراء الحجازية" (د، ت).
- عبد الله عبد الرحمن جفري: "جزء من حلم" مؤسسة تهامة ط1 جدة 1984؟
- عصام خوقير: "السنيورة "، ط1، جدة 1981؟
- عمر طاهر زيلع: "القشور" ط1، جدة 1983؟
- غازي القصيبي: "شقة الحرية "، ط1، لندن 1994 ؟!...
- غالب حمزة أبو الفرج: "سنوات الضياع "، ط1، تونس 1980؟
- فؤاد عنقاوي: "لا ظل تخت الجبل" 1979.
- محمد زارع عقيل: "ليلة في الظلام" ط1، مصر 1960.
- محمد عبده يماني: "فتاة من حائل "، جدة 1980.
- هند صالح باغفار: "البراءة المفقودة "، بيروت (د، ت).

فباستثناء الروايات: "ثقب في رداء الليل"، 1961 و"ثمن التضحية" 1959، و"ليلة في الظلام" 1960، فإن بقية الأعمال الأخرى تبدو خارج المسار التاريخي المرصود، فعل يعني ذلك أنها كتبت خلال المرحلة المحددة وبقيت حبيسة محابسها، إلى أن أتيحت لها فرص الطبع والنشر، في التواريخ التي ارتبطت بها أعلاه، أم ماذا؟

5 –3: التحديث:

- أحمد الدويحي: "ريحانة، ط1، القاهرة 1991.
- أمل شطا: "غدا أنسى" ط1، بيروت 1980.
- تركي الحمد: "العدامة "، ط1، بيروت 1997.
- رجاء عالم: "طريق الحرير "، بيروت 1995.
- عبد العزيز الصقعبي: "رائحة الفحم" ط1، الرياض 1988.
- عبد العزيز مشري: "الحصون "، ط1، الرياض 1992.
- عبده خال: "الموت يمر من هنا "، بيروت 1995.
- علي الدميني: "الغيمة الرصاصية "، بيروت 1998.
- ليلى الجهني: "الفردوس اليباب "، الشارقة 1998.
- هدى عبد المحسن الرشيد: "عبث "، القاهرة 1980.

يلاحظ أنه لا أثر للعقد السابع من القرن العشرين، أي من 1971 إلى 1979 ولأواخر العقد الأخير منه ومنطلق القرن الجديد، أي من 1999 إلى 2001، حسب المسطرة؟

ولكن مع كل ذلك فالجهد المبذول في رصد وتصنيف النماذج الروائية السعودية في هذا المجلد، أكبر وأهم من الثغرات التقنية التي ارتبطت بالمسار السردي الروائي السعودي الحديث، الذي تكامل مع كل مجلدات الموسوعة في إنجاز "أنطولوجيا" شاملة للأدب العربي السعودي الحديث ونقده، بوصفها دعما أصيلا لخارطة الأدب العربي الحديث الذي يبدو بأمس الحاجة إلى مثل هذا النوع من المدونات الموسوعاتية الكبرى، التي تعتبر –إذا أخذنا بمنطق

علماء الأصول والفقه– "فرض كفاية" ينوب عن "فرض العين"، وإن لم يحجب أهميته وجدواه. ومن يدري، فلعل الإنجازات المؤسساتية، الموسوعاتية، المحلية من هذا القبيل تكون منطلقا لإنجاز مشروع موسوعاتي، حضاري ضخم يتسع لكل ما ائتلف أو اختلف في فضاء الأدب والنقد الأدبي العربي الحديث، من أقصى المشارق إلى أقصى المغارب.

وفي ذلك فليتسابق المتسابقون...

الهوامش والإحالات

1. أنظر –على سبيل الاستئناس– ما يلي:

د. عبد الله أحمد المهنا: "الحداثة وبعض العناصر المستحدثة في القصيدة العربية المعاصرة"، دورية "عالم الفكر"، وزارة الإعلام، الكويت، مج: 19، ع: 3، أكتوبر، ديسمبر 1988، ص: 5-46.

د. محمد شكري عياد: "انكسار النموذجين الرومانسي والواقعي في الشعر"، المرجع السابق، ص: 47- 82.

د. محمد مصطفى بدوي: "الشعر العربي الحديث بين التقاليد والثورة "، السابق ص: 83- 98.

د. محمد أنقار: "تجنيس المقامة "، فصول، مج: 13، ع: 3، خريف 1994 ص: 9-18.

د. عبد الله محمد الغذامي: "القمر الأسود أو النص القاتل"، السابق ص: 40- 57.

– ألفت كمال الروبي: "تحول الرسالة وبزوغ شكل قصصي في رسالة الغفران"، السابق، ص: 72- 91.

د. عبد الله إبراهيم: "في استنطاق النص: حي بن يقظان: سيرة ذاتية "لابن طفيل"، السابق، ص: 94- 103.

د. نصر حامد أبوزيد: "الرؤيا في النص السردي العربي، حافز سردي أم وحدة دلالية ؟"، السابق ص: 105- 127.

د. عبد العزيز حمودة، المرايا المقعرة، نحو نظرية نقدية عربية (عالم المعرفة 272) المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 2001 ص: 17- 98/ 305- 490.

2. لعل من بين ما تكاملت فيه –مع التفاوت الظرفي– الأنظمة العربية لما يزيد عن نصف قرن، هو مراهنتها على "ثقافة السلطة"، عكس ما تحقق في فضاء المجتمعات الحديثة التي أقلعت باحتكامها إلى "سلطة الثقافة".

3. في هذا السياق، وبصرف النظر عن "هوامش" القول من هنا وهناك، فقد كان لحصول شيخ الرواية العربية الحديثة، نجيب محفوظ، رحمه الله، على جائزة نوبل في الأدب سنة 1988 أثر ملحوظ تجلى في اهتمام الآخر بالأدب العربي الحديث: ترجمة أو دراسة أو فتح مجالات واسعة للحوار بين الثقافة العربية والثقافة الغربية.
4. للإنصاف فإن كثيرا من النخب الثقافية العربية الحديثة في فضاء المغرب العربي والخليج العربي، قد تأسست في القاهرة أو دمشق أو بغداد أو بيروت، لتستكمل بعد ذلك مسارها المستقل، متأثرة ومؤثرة.
5. كثيرا ما يتردد في القاموس السياسي العربي الحديث مفهوم "التنمية المستدامة"، دون اعتبار شرطيتها الأساس، متمثلة في المراهنة الجذرية على أداء ومردود التربية والتعليم عموما، وفي مجال التعليم العالي خصوصا، ولمزيد من الوعي بذلك، أنظر:

–د. مصطفى عدنان: "مسألة الجامعات العربية: "منظور القبور الحية"، مجلة عالم الفكر، مج: 24، ع: 1، 2، يوليو– ديسمبر 1995، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص: 15- 34.

– د. مايكل شاتوك: "المهددات الداخلية والخارجية بجامعة القرن الحادي والعشرين"، ترجمة: هند مصطفى، السابق، ص: 35- 67.

– د. حافظ قبيسي: "التعليم العالي العربي بين حق المواطن في العلم وحق المواطن في النخبة"، السابق، ص: 69- 93.

6. وقائع الندوة الفكرية الخامسة لرؤساء ومديري الجامعات في الدول الأعضاء بمكتب التربية العربي الدولي لدول الخليج العربي، الرياض 1415 هـ– 1994 م، ص: 35.
7. مع وجود اختلافات جزئية، نلاحظ أن لهذا الإنجاز نظائر كثيرة، بعضها قديم وبعضها حديث، مثل:

– طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي.

- معجم الشعراء للمرزباني.
- معجم الأدباء لياقوت الحموي.
- يتيمة الدهر للثعالبي.
- "المفضليات" و"الأصمعيات" وكتب الحماسة لأبي تمام وغيره، الخ..
- معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين، الذي أصدرته مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري سنة 1995.
- معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين، التاسع عشر والعشرين، الذي يبدو قيد استكمال الإنجاز والصدور لاحقا، الخ..

8. موسوعة الأدب العربي السعودي الحديث" المجلد الرابع: الشعر، إعداد: د. عبد الله المعيقل "مقدمة"، ص: 13- 16/ 28- 88.

9. بعد مراقبة دقيقة لمسار المنجز الشعري السعودي الحديث، لاحظنا أن المسار التاريخي (الكرونولوجي)، المثبت في المجلدات الثلاثة، أي من 1902 إلى 1999، قد لا يتطابق أحيانا كثيرة مع واقع الوتيرة الشعرية، وإن كان اعتماد هذا المسار كنموذج مفتوح يتيح إدخال ما قد يكشف عنه البحث والتنقيب، لاحقا، شأن كل الإنجازات الموسوعاتية المتواترة.

10. موسوعة الأدب العربي السعودي الحديث، المجلد الرابع، إعداد: د. معجب بن سعيد الزهراني (مقدمة) ص: 13- 19/ 21-28 / 36-85.

11. لنلاحظ أن مجمل أعمال هذه المرحلة تتراجح بين "القصة" و"الرواية" والمقال "المسرود"، ما يجعل من انتظامها في مدرك "القصة القصيرة" مثار تساؤل واستغراب، أحيانا، لكن لابأس إذا كان الأمر يتعلق باستكشاف "الجذر" التاريخي لتشكل "القصة القصيرة"، لاحقا.

12. لأسباب تخص الشعر في فضائه الطبيعي، رأى أ، د. عبد الله المعيقل أن يفصل –جزئيا– بين "البدايات" و"التأسيس"، ولأسباب تخص السرد: (قصة قصيرة)

و(رواية) دمج أ، د. معجب الزهراني وأ، د. منصور الحازمي "البدايات" في "التأسيس"، خصوصا إذا علمنا أن "السرديات" في راهن الأدب العربي الحديث عموما، والسعودي آنئذ خصوصا مستقدمة من خارج راهن فضائها المستقبل، رغم ما يقال عن ثراء الذاكرة السردية التراثية النائمة في جوف التاريخ الثقافي والأدبي، الاجتماعي (الجمعي) القديم.

13. لنلاحظ أن كثيرا من الأعمال السردية لهذه المرحلة: (القصة القصيرة) استطاعت أن تحقق أحد أخص خصائص البناء الفني للقصة القصيرة، المتمثل في اختزال "مقول "القول" وكيفيته، في آن معا، بحيث يتعذرتقسيم النصوص القصصية إلى شكل ومضمون وأداة ورؤية ومعبر ومعبر عنه ومعبر به، وربما لهذا تبدو بعض القصص القصيرة أقرب إلى روح الشعر أو إلى وحدة الأثر الذي يتركه التمثال أو اللوحة، في المتلقي.

14. يلاحظ المتتبع أن الخطاب السردي في القصة القصيرة والرواية، قد استقطب إليه كثيرا من المبدعات السعوديات اللواتي جعلن منه منبرا متميزا في الأدب النسائي السعودي الذي بدأ يمثل ظاهرة قائمة بذاتها، خصوصا في بداية العقد الأول من القرن الحالي، ولتعزيز ذلك، أنظر:

- د. إيمان تونسي: "بوح الأنثى في رواية "قطرات من الدموع"، في مصنف خطاب السرد، الرواية النسائية السعودية، تقديم وتحرير د. حسن النعمي، الكتاب الأول، النادي الأدبي الثقافي بجدة (135) جدة 1427 هـ–2006 م، ص: 91- 117.
- د. فاطمة إلياس قاسم: "شهريار حيا، شهريار ميتا: ولاء الخطاب الأنثوي الإبداعي في حكايات "آدم يا سيدي" "، السابق ص: 121- 158.
- إيمان الصبحي: "الخطاب الإيديولوجي "تجسيد الطلاق بطلا" "، السابق ص: 191- 217.
- نورة محمد المري: "قراءة في رواية اللعنة"، السابق ص: 269- 322.

- د. حسن النعمي: "خطاب الإقصاء والإحلال في الرواية النسائية السعودية" السابق، ص: 663-681.

15. د. منصور بن إبراهيم الحازمي "مقدمة"، المجلد الخامس: الرواية، ص: 9.

16. المرجع السابق، نفسه ص: 11.

17. "موسوعة الأدب العربي السعودي الحديث"، المجلد الخامس، الرواية، إعداد: د. منصور بن إبراهيم الحازمي، ص: 165- 435.

18. نفسه، ص: 439-602.